wadod.org

غاية المرام في تخاطب الأقلام

صنفها

الإمام أبو محمد عبد الله بن أحمد بن سلامة المقدسي الحنفي

حققها على نسخة فريدة ... الأستاذ هلال ناجي

(المقدمة)

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الرسالة:

«غاية المرام في تخاطب الأقلام»، رسالة في المفاضلة بين أنواع الخطوط، منها نسخة فريدة في العالم محفوظة في مكتبة كوتا برقم /٢٧٧٨/. أشار إليها كارل بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي فقال[١]:

«أبو محمد علي بن أحمد بن سلامة المقدسي كتب في عهد الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م) لرئيس ديوانه سعد الدين بن غراب: غاية المرام في تخاطب الأقلام، مفاضلة بين الخطوط المختلفة: جوتا ٢٧٧٨».

وقد وقع بروكلمان وهو ينوّه بهذه المخطوطة في غلطين:

الأول: إن اسم مصنف الرسالة هو: عبد الله بن أحمد بن سلامة المقدسي وليس علي بن أحمد، كما ذكر بروكلمان، وصواب الاسم مكتوب على صفحة العنوان من المخطوطة. والثاني: إن مصنفها لم يكتبها في عهد الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ٦٧٦هـ) لرئيس ديوانه سعد الدين بن غراب[٢]، وإنما كتبها في عهد السلطان الظاهر

(١) تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان، ترجمة د. رمضان عبد التواب. الجزء الخامس، دار المعارف بمصر، ١٩٧٥ (ص ١٥٨).

(٢) القاضي سعد الدين بن علم الدين بن غراب واسمه إبراهيم بن عبد الرزاق، تنظر أخباره في المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٣ ص ٣٣٤، ٣٣٥، ٤٠٨. والنجوم الزاهرة، ج١١، ص ١٧١. ودرة الأسلاك حوادث سنة ٨٠١هـ. والبدر الطالع ١/ ١٦٢. والشذرات ٦/٧. وتاريخ ابن قاضي شهبة ص ٨٦ لسنة ٧٨٤هـ. وأنباء الغمر ٢/ ٦٦. والسلوك ج٣ ق٢ ص ٤٧٦ فما بعدها.

wadod.org

برقوق[١] الذي تولى السلطنة في التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤هـ، وتخلى عنها سنة ٧٩١هـ، وهي مدة سلطنته الأولى، ثم عاد إليها ثانية في الرابع عشر من صفر عام ٧٩٢هـ، وبقي فيها حتى وفاته في شوال عام ٨٠١هـ، وهي مدة سلطنته الثانية. فبين السلطانين أكثر من قرن. وسعد الدين بن غراب هذا الذي عُملت الرسالة برسمه (واسمه إبراهيم بن عبد الرزاق) كان ناظر الجيش وناظر الخزانة الخاصة زمن الظاهر برقوق، وتذكر المصادر أن السلطان مات وهو ناظر الخاص والجيش.

وخزانة الخاص هذه استحدثت في دولة محمد بن قلاوون، وذلك بعد إبطال الوزارة، وصار لها ناظر يتحدث فيما هو خاص بمال السلطان[٢] من هنا تتضح المكانة الرفيعة التي كانت لسعد الدين بن غراب الذي صُنِّعَتْ الرسالة باسمه.

وقد بحثت طويلاً عن ترجمة لمصنف الرسالة فلم أظفر بها. ولكن إشارة وردت على ورقة العنوان من المخطوطة الفريدة وهي: «الإمام أبو محمد عبد الله بن أحمد بن سلامة المقدسي الحنفي شيخ الشيوخ والده كان»، هذه العبارة دفعتني إلى البحث عن ترجمة أبيه، فظفرت بها في كتاب «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة»، ونصها: «أحمد بن سلامة المقدسي ثم المصري شهاب الدين الواعظ كان شيخاً بالخانقاه وخطيباً بالجامع كلاهما لبشتك، وكان عليه قبول في وعظه، ثم تعصب عليه بعضهم فخرجت عنه الخانقاه، فعوّضه الله خانقاه سرياقوس، فباشرها إلى أن مات سنة ٧٦٩هـ، وصنف كتاباً في الصوفية»[٣].

ولم نظفر بتاريخ مولد مصنف هذه الرسالة ولا بتاريخ وفاته. ولكن يمكن القول على وجه التأكيد: إنه من رجال القرن الثامن الهجري لوفاة أبيه عام ٧٦٩هـ، وربما أدرك القرن التاسع الهجري، لكننا لم نظفر له بذكر في كتاب الضوء اللامع للسخاوي.

وهذه الرسالة وصفها مصنفها في مقدمته بأنها: «خفيفة لطيفة فيها ملح ظريفة شريفة، فالمنظوم فيها ابتكرته، والمنثور منه ما سُبِقْتُ إليه فحررته». ثم ذكر أنه سمى رسالته: «غاية المرام في تخاطب الأقلام»، وقد أجرى فيها الكلام على لسان الأقلام، كلٌّ قلم يفتخر بنفسه، ثم يختم فخره بشعر يمدح فيه ناظر الخاص (سعد الدين بن غراب). ثم ختم الرسالة بقصيدة من نظمه مدح فيها مَنْ صُنِّفَت الرسالة برسمه. وكان

(١) الظاهر برقوق: ينظر المنهل الصافي، ج٣ ص ٢٨٧ فما بعدها.

(٢) صبح الأعشى للقلقشندي، ج٤، ص ٢٣٠ وج١١، ص ٣٣٩.

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: تأليف شيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ). حققه محمد سيد جاد الحق، الجزء الأول ص ١٥٠، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

wadod.org

الناسخ قد ذكر اسمه في الصحيفة الأخيرة، لكن طمساً متعمداً عفّاه، فلم يَبْق مقروءاً من عبارته غير: عَلَّقَهُ. . . عفا الله عنه.

وليس في الرسالة تاريخ نسخ. وقد أثبتنا صورة ورقة من المخطوطة الفريدة.

وبعد، فهذا لون من المفاخرات بين الأشياء، عرفه أدب ذلك القرن والقرن الذي سبقه. فلضياء الدين ابن الأثير رسالة عنوانها «الأزهار» فيها مفاخرة بين الأزهار، كنت نشرتها محققة في الموصل عام ١٩٨٢.

ولعلي بن محمد بن مشرف الحصكفي المارديني، من رجال القرن التاسع الهجري رسالة في المفاخرة بين الورد والنرجس، نَهَدَتْ إلى تحقيقها الدكتورة الفاضلة ابتسام مرهون الصفار، وهي قيد الطبع فيما أعلم.

وقد عرف الأدب العربي لوناً آخر من هذه المفاخرات، هي المفاخرات بين المدن، ومن أبرز أمثلتها رسالة «مفاخرات مالقة وسلا» للسان الدين بن الخطيب. وابتدع القلقشندي موضوعاً جديداً في المفاخرات هو: المفاخرة بين العلوم، وامتدت المناظرات أو المفاخرات إلى حقول أُخر، فصنّف تاج الدين عبد الباقي بن عبد المحيد اليماني رسالة سماها «بريد الجنان في المفاخرة بين القنديل والشمعدان». وأدار ابن مشرف المارديني المار الذكر مفاخرةً بين المدام والشمع بعنوان «لذة السمع في المفاخرة بين المدام والشمع». وكنت نشرت رسالتين مهمتين في المناظرة بين السيف والقلم، الأولى لابن الوردي (ت٧٤٩هـ) والثانية لابن نباتة المتوفى عام ٧٦٨هـ[١]، وثمة رسالة ثالثة في الموضوع ذاته للقلقشندي أثبتها في كتابه صبح الأعشى وسماها: «حِلْيَةُ الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم».

وبعد: فإني أهدي عملي هذا إلى أمير الخطاطين في العراق الأستاذ الباحث المحقق السيد يوسف ذنون رداً على تحية سبقت منه، والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً.

(النص)

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

ابتدىء قولي بحمد الله مطلع الأبرار على الأسرار، وضارب الأمثال للتفكر والاعتبار، قد جعل لكلِّ شيءٍ قدراً، وأودع كل موجود سراً، أَحَدٌ، صَمَدٌ، قيَومٌ، ماجدٌ: [من المتقارب]

وفي كُلِّ شيءٍ لـه آيةٌ تدلُّ على أنّه واحدُ

(١) مجلة المورد، العدد الرابع، المجلد الثاني عشر، ١٩٨٣، (ص ١١٣ ـ ١٤٨)، بغداد.

wadod.org

غاية المرام في مخاطب الاقلام
للامام ابو محمد عبد الله بن احمد
ابن سلامه المقدسي الحنفي
شيخ الشيوخ والده كان
لعدهم اسم بالرحمه
والرضوان
امين
م
الظاهريه
وعملت برسم سعد الدين غراب ناظر الخواص المملكه



Kabin 1807. N: 681.
H. J. Vectge.

ورقة عنوان المخطوطة المعتمدة.

واعلم يا اخي وتحقق ان زوال الدنيا محقق وما مر مع
٢ الايام خطاب الثلث والريحان قل لهما
وللغبار ليسمع الشعر والطومار ان قلبه حي
لفهم ضرب الامثال من ذوي الالباب يخاطب
بلسان الحال حتى صرير الباب وظنين الذباب
ونعوذ بالله من عمى الابصار ونشهد ان
عنده كل شئ بمقدار رحمته الارجو منه بجاه
محمد والمامول من الملك السلام حسن الختام
والوفاة على الاسلام متوسلين الله بجاه سيد
الانام عليه افضل الصلاه والسلام ورضي الله
عن اصحابه وذريته وازواجه وحزبه وآله على الدوام
بمر الليالي والايام وسلام على
المرسلين والحمد لله رب
العالمين امين امين



BIBLIOTHECA REGALIS GOTTHANA.

الورقة الأخيرة من المخطوطة المعتمدة.

wadod.org

وأختتم قولي بتجديد شكره وحمده، وترديد الصلاة على رسوله وعبده، محمد واسطة عقده، وعلى آله وصحبه وأهل ودّه. وبعد:

قال: لسان الحال أدق من لسان القال رموزاً، وأنطق أسراراً وأنفس كنوزاً، فلسان القال خَبرٌ، ولسان الحال عِبَرٌ، والخبر يحتمل التصديق والتكذيب، والعِبَرُ رموز بمجرد الإشارة تُصيب.

وهذه رسالة خفيفة لطيفة فيها مُلح ظريفة شريفة، فالمنظوم فيها ابتكرته، والمنثور منه ما سُبقت إليه فحررته، وكلُّ فقرةٍ من الفِقَر، فيها عبرة لمن اعتبر. فيا من بالسبق يفاخر، كم ترك الأوّلُ للآخر. وسميتها «غاية (٢آ) المرام في تخاطب الأقلام». وعندما أردت ختم أبوابها، جلس لي بعض طلابها، وانتدب منهم أجلّ أصحابي، ومن إليه ذهابي وإيابي، وقال: يا أبا تُراب! إنْ أردت ملء الجراب، فعليك بابن غُراب. فلما سَمِعَتْ كلامه الأقلام، رفعت لذلك الأعلام، وصار كل قَلَم يخاطبُ أخاه بلسان حاله، لا بلسان قاله، يسمعه الداني والقاص، ويمدح مولاه ناظر الخَاص. فأول ما تكلم:

قلم الطومار

وقال: أنا قلم للملوك والكبار، أنا أكتب الرزق إذا آنَ أوانه، وأنعم به سلطانه، أنا عودٌ خُصِصْت بالسلطان، أنا فانٍ وكل شيءٍ فان. ثم جاء بطوماره عَلَماً يمدح قلماً قلماً: [من الطويل]

أيا سعد دين الله يا ناظر الخاصِ ... لكم قلم الطومار يدعو بإخلاصِ
أطعتُ يد السلطان حين لمستُها ... وغيري من الأقلام إن مسَّها عاصي

قلم الثلث (٢ ب)

فلما سمع الثلث قوله غارَ وقال: ما هذا الكلام يا طومار، لقد أطلقتَ لسانك فهلكت، ولو قيدته ملكت، تأدب فإن في الأدب نعمة، واصمت فإن في الصمت حكمة. ثم أنشد وقال معلناً: ما يمدح سعد الدين إلا أنا: [من الطويل]

أيا قمراً زانَ[1] المجالس كُلَّها ... وليس له في المعضلات نظيرُ
ليهنيك أن الثلث جاءك مادحاً ... وحسبُك مدح الثلث وهو كثيرُ

قلم الرّقاع

فلما سمع الرقاع كلام الثلث والطومار، تبادرت منه الدموع الغزار، وقال: كلاكما مرافع، وقليل المنافع. وليس لكما تدبير، ويعرفكما الصغير والكبير، ثم أنشد كالاثنين قرير الناظر والعين، يتضرع بإخلاص، ويمدح ناظر الخاص: [من الوافر]

رقعتُ بفضلكم قلباً تهلهلْ ... فلا تغنى الرقاعُ ولا تهلهلْ

(١) في الأصل المخطوط: أزان، والألف زائدة فحذفناها.

wadod.org

غـدا قلـم الـرقـاع لكـم غـلامـاً يخـطُّ بجـودكـم خطّـا مُسَلْسَـلْ

قلم المُحَقِّق (٣ آ)

فلما سمع المحقق كلام الرقاع، قال: والذي يُعبد ويُطاع، ومن أعطى النمل القوى، فالقَ الحَبِّ والنوى، لا يسابقني أحدٌ إلى التدقيق، ولا يشاركني في التحقيق، ثم أنشد كإخوته مُدِلاً بطريقه وقوته، ملصقاً بالتراب، يمدح مولاه ابن غراب: [من الوافر]

بسعـد الـديـن مـولانـا ظفـرنـا بنيـل الـرزق مـن بحـرٍ تـدفـقْ
لـه قلـم المحقـق قـد تبـدَّى يخـط بجـوده سفـراً مُحقَّـقْ

قلم النَّسْخ

فلما سمع النَّسْخُ كلام المحقق، كاد من الغيظ أن يتمزق، آسمك هذا في كتاب مُنزّل، أم عن نبي مرسل؟ ما هي إلا اصطلاحات تلقيتموها، وأسماء سميتموها، أنا وإنْ كان النسخُ واقعاً في اسمي، فقد عُوفي منه رسمي، وهذا عذر صحيح، لكلّ حَسَنٍ اسمه قبيح، ومع هذا فأنا أكتب القرآن، وحديث سيد ولد عدنان، ثم أنشد بصوت حسن منسوب، يمدح ناظر الخاص على أسلوب: (٣ب) [من الطويل والوافر]

نَسَخْـتَ ظـلام الجـور عنّـا بعـدلـك وَسُـدْتَ خيـار القـوم طـرّاً ببـذلـكْ
وكـلُّ قبيلـةٍ فـي النـاسِ سـادَتْ تُعَـدُّ بقَطْـرَةٍ مـن بَحْـرِ فَضْلِـكُ[1]

قلم الرّيحان

فلما رأى الريحان، قلم النسخ مبتهجاً فرحان، قال: تب وكن للتوبة متهيئاً، وآخر من اعترفوا بذنوبهم، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ثم افتخر بهذه النسبة وقال: أيها الإخوة والأحبة: قد وعدنا بالجنان، ويقينا من ألحان، وخصصنا بقول الحبيب «فَرَوْحٌ وريحان»، ثم أنشد مستمسكاً بعلمه، يمدح ناظر الخاص بقلمه: [من الطويل]

أنـا قلـم الـريحـان قـد صـرتُ عبـدكـم ومـن يـك عبـداً للجنـاب لـه الهنـا
ولسـت بنمـامٍ أنـمّ بسـرِّكـم ولكننـي أهـوى جمـالـك زَيْـدَنـا

قلم الأشعار

فاغتاظ قلم الأشعار وغار، وقال: ما أنت يا ريحان إلاّ هذّار، قد أشغلت بحسن ظاهرك عن العيوب، إن الله لا ينظر إلى الصور، ولكن ينظر إلى القلوب (٤آ) فَلِمَ تَفْتَخِرْ، وأنْتَ عودٌ نَخِر؟ أنا في الدووين المعلومات، وفي الدروج المرسومات، وأنا في

(١) البيت الأول من البحر الطويل، والثاني من البحر الوافر، وقد نبَّه أحدهم في الهامش على ذلك. ويمكن تصويب هذا الاختلاف بإعادة صياغة البيت الأول كالآتي: [من الوافر]

نَسَخْـتَ ظُـلامـةً عنّـا بعَـدْلِـكْ وسُـدتَ خيـارنـا طـرّاً بَبـذْلِـكْ
وكـل قبيلـة فـي النـاس سـادت تُعَـدُّ بقطـرةٍ مـن بحـر فَضْلِـكْ

wadod.org

الحالين مستطاب، فأفهم القول وأسمع الخطاب، ثم أنشد على طلق، مشيداً بربّ الفَلَق: [من الطويل]

أنـا قلـم الأشعـار مبتسـمٌ ثغـري ... أجـرُّ مـلاءَةَ العـزِّ والمجـد والفَخـرِ
كسـانـيَ سعـدُ الـديـن ثـوبـاً مطـرزاً ... ففقـت علـى العيـدان فـي الـدرق الخُضـرِ

قلم الغبار

فلما سمع الغبار، كلام قلم الأشعار، تبختر كالطاووس، وتحلى كالعروس، وقال: أنا في الفوائد مُعان، أنا لا أعلو إلا على الشجعان، أنا في السلم أحتجب، وأرى العزلة مما تجب، ثم قال: أيها الأقلام العوالي، فلكم نظم لناظر الخاص اللآلي، وضمّخها بالمسك والغوالي، على سوء فكرتي وحالي، وأنا أنشد موالياً للموالي، أجمع فيها الأقلام، وأختم الباب والسلام، وأنشد موالياً:

غبـار عـارضـك ريحـان وأصبـح منسـوب ... ونسـخ وَصْلَـكْ محقـق لـي أنـا محسـوب
(٤ب) وثلث ما بي نظمتو وشعر لك منسوب ... وأنـت طـومـار هجـرك يلسـع الملسـوب

فقلت: أيها الغبار هلاّ قلت شعراً كالطومار؟ قال: وأنشدك أبياتاً معتبرة، تجمع أقلاماً عشرة، يستملحها الأديب، ويستحسنها من كان لناظر الخاص حبيب، قلت نعم؛ فأنشد: [من الخفيف]

«نسـخُ» ريحـانِ عـارضَيْـكَ نسيـبٌ ... بحـواشـي «رقـاع» حسنـك يلحـقْ
«ثلث» عمر العذول [في][1] فيك يَفْنَى ... «بغبـارٍ» فليـت وَصلـي «مُحَقَّـقْ»
إن تكـن قـاتلـي «بطـومـار» هَجْـرٍ ... فبشعـر العِـذارِ قلبـي «مُعَلَّـقْ»

ثم قال: يا بغيتي وأنسي، ويا من عُرِفَ «بالقُدْسي»، نحن صور وأشباح، وجسوم بلا أرواح، وكلنا بإخلاص، مَدَحَ ناظر الخاص، وأنت مع وفور عقلك، وكثرة سماعك ونقلك، كيف لا تختم تأليفك المليح بالغزل فيه والمديح، فقلت إذ ذاك مرتجلا، أمدح ناظر الخاص: [من الوافر]

وحقـك أيهـا المـولـى الأجَـلُّ ... قـوامـك مـا لـه مثـلٌ وشِكْـلُ (٥آ)
وغصـن البـان حـدثنـي حَمـامٌ ... تجـافـوه وقـالـوا فيـه ذيـلُ
أهـل للغصـن قـدك يـا سعيـد ... وهـل فيـه كسعـد الـديـن مثـل
ومنشـؤهـا عبيـد مقـدسـيٌّ ... نظيـم قُـوَيْلِـهِ بنـداك يحلـو
تحنـن يـا عـزيـزُ عليـه واجبـر ... كسيـر قُلَيْبِـهِ فلـديـك فضـل
ويهنـك سيـدي صـومٌ وعيـدٌ ... طـوال الـدهـر أعـوامـاً تهـلّ
فـأنـت القصـد والـدنيـا عليهـا ... سـلام الله إن كثـروا وقلـوا

(١) ما بين معقوفتين زيادة يستقيم بها الوزن.

wadod.org

تفـــوق معممـــاً كـــل البـــرايـــا ... وأي مشـــــرش فهـــــو الأقـــــل
كـــرامُ النـــاس إن ذكـــروا بجـــودٍ ... فـــأنـــت الـــوبـــل والبـــاقـــون طـــلُّ
وإن سمعـــت بحسِّـــك فـــي البـــوادي ... أســـود الغـــاب خـــوفـــا لا تحـــلُّ
أيـــا قمـــراً تحـــاذره ليـــوثٌ ... تـــدلـــل مـــا استطعـــت فـــأنـــت فحـــل
أسعـــد الـــديـــن أنـــت وحـــقّ بيـــتٍ ... إذا قـــدم الحجيـــج لـــه أهلّـــوا
بـــدور التـــمّ إن تبـــدو إليهـــا ... يقـــلّ ضيـــاؤهـــا أو يضمحـــلُّ
وصلـــى الله ربـــي فـــي عـــلاءٍ ... علـــى عبـــدٍ لـــه حـــوضٌ وظـــلُّ
فصلّـــوا بـــالقلـــوب عليـــه جهـــراً ... وصلّـــوا ثـــم صلّـــوا ثـــم صلّـــوا

أما من سمع كلام النسخ والرقاع، كُنْ لمولاك عبداً مطاع (٥ب)، واعلم يا أخي وتحقق، إن زوال الدنيا محقق، ويا من سمع بالألحان، خطاب الثلث والريحان، قل لهما وللغبار، وليسمع الشعر والطومار: إن من قلبه حي لفهم ضرب الأمثال من ذوي الألباب، يخاطب بلسان الحال حتى صرير الباب، وطنين الذباب، ونعوذ بالله من عمى الأبصار، ونشهد أن عنده كل شيء بمقدار.

تمت الأرجوزة بحمد الله وعونه، والمأمول من الملك السلام، حسن الختام، والوفاة على الإسلام، متوسلين إليه بجاه سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، ورضي الله عن أصحاب وذريته وأزواجه وحزبه وآله على الدوام، بممر الليالي والأيام، وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله رب العالمين آمين آمين (٦آ).

[نهاية النص]